يدرج وهو يقدم لإخوته ضروبًا من اللذة وفنونًا من المتعة، يُوشك أن يكون لهم لعبة لولا أنهم لا يستطيعون أن يعنفوا به أو يقسوا عليه، وفي الدار عَلَّتها التي كانت تدعوها خالتها، وهي «مُنى»، هذه ذات الوجه الطلق، والثغر الباسم، والشباب الغض، والقلب الذي يفيض رحمة وحنانًا. وفي الدار خدم رجال ونساء، منهم من يُعنى بأمور الدار تنظيفًا وتنظيمًا وتنسيقًا وإعدادًا للطعام والمائدة، ومنهم من يُعنى بهذه الحيوانات التي كانت تُقيم مع أهل الدار في أماكن خُصِّصَت لها، والتي كانت تمثل ما أُلِف في المدن والقرى من هذه الحيوانات التي تعاشر الناس وتمنحهم خفض الحياة ولينها، ففي الدار البقر والجاموس، وفيها الحُمُر والخيل، وفيها الدواجن ذوات الريش على اختلافها.

وقد كان الحاج مسعود قد قضى فيما بينه وبين نفسه ألا يُولد لابنته مولود إلا أهدى إليه شيئًا من هذا الحيوان، فلهذا جاموسة، ولهذا بقرة، ولهذا فرسًا، وكانت الأسرة تتخذ الدواجن وتستكثر منها؛ فكانت دار خالد خليطًا غريبًا من دور أهل المدن ودور أهل الريف، وكان هذا كله يملأ الدار حياة صاخبة كثيرة الضجيج والعجيج، كثيرة الحركة والنشاط، مُختلفة أنواع العمل. وكان أبناء الدار يجدون في هذا كله اللذة كل اللذة والحياة كل الحياة، ولو تُركوا وما يشاءون لما ذهبوا إلى الكُتَّاب ولا إلى المدرسة، ولآثروا أن يُنفقوا أوقاتهم يشهدون هذه الحركات الكثيرة المتنوعة، يلوذ بعضهم بالمطبخ حيث يُهيأ الطعام وحيث لا يعدم من تُلقي إليه طرفة من طرف هذا الذي تهيئه، ويلوذ بعضهم بقاعة التنور حيث يهيأ الخبز وتتخذ ألوان الكعك والفطير، ويقف بعضهم عند هذه التي تحلب البقرة أو الجاموسة، أو عند هذه التي تمخض اللبن، أو عند هذه التي تدعو الدجاج لتلقي إليهن الحب، ولكن خالدًا كان قاسيًا على بنيه يأخذهم بالحزم في أمر الكُتَّاب والمدرسة، ولم تكن زوجه أقل منه شدة ولا حزمًا؛ فكانوا يذهبون كارهين إلى كُتَّابهم ومدرستهم، ثم يعودون فرحين إلى دارهم.

وكانت سميحة وأختها بين هذا كله سعيدتين راضيتين قد أُنسيتا ما أحستا من ألم أو وجدتا من شظف في حياتهما الأولى، وما كان أحرص سميحة على أن تتصل هذه الحياة الناعمة الفرحة، لولا أنَّ أباها كان بعيد الصوت في مدينتيه الأولى والثانية، متهمًا بأنَّ له حظًّا من يسار، متهمًا أيضًا بأن حياته حديثة، فيها كثير من حضارة وترف وتأنُّق، ولولا أن سميحة نفسها كانت على حظ من جمال يتحدث الناس به في المدينتين، فلم تكد تبلغ الرابعة عشرة حتى خطبها الخاطبون، ولم تكد تبلغ الخامسة عشرة حتى عادت إلى مدينتها الأولى لتُزف فيها إلى زوج له شيء من ثراء ومكانة، ولكن